

قصيدة هكذا تحدث أبو الهول..

[قصيدة نثر]

تمهيد:

حقائقُ التاريخُ

ترقد في القبورُ

ولما يرى الإنسانُ

منها سوى القشورُ

فإن أردت أن ترى

وتكشف المستورُ

فاخرج إلى الرمال

وسائلُ الصخورُ

تنبئك عن أخبارها

وحلّوها ، ومراً..

في غابر الأزمانُ

حيث بنى المصري

من واقع الشكرِ

معابداً وأضرحة

وكان كلما استطلال في المبناءُ

أدرك أن الأرض فوقها سماءُ!

وأن عين الله لا تنام°

عن كل ما يحدث في الأحلام°

الموت يعقب الحياة°

وكل مخلوق إلى رفات°

فلتكثُر الخيرات°

ولتُنثر المهبات°

* *

ما يفعل المالُ لدى البخيلِ ؟!

والتمر لا يظل في النخيل!

وليس للفقير أن يجوع

والغنى يحلب المضروع!

....

....

بردية وجدتُها

في مصرنا القديمة°

وحكمة أنقلها

لجيلنا الجديد..

كأنها تميمه!

أجواء الحديث:

كنا قد خرجنا في رحله°

لزيارة أهرامات الجيزة

وبعد أن قمنا حولها بجولة واسعة

توقفنا طويلا عند تمثال (أبو الهول..)

وكان بصحبتنا مرشد سياحي

أخذنا نسأله عن أصل التمثال ،

وتاريخه ؟ وإلى ماذا يرمز ؟

راح المرشد يقدم لنا إجابات جاهزة

كأنها معلّبة!

كانت عجيبة ، وغير مقنعة!

فالتمثال كما هو واضح

عبارة عن جسد أسد

يعلوه رأس فرعون جميل..

وهو مكوّن من صخرة واحدة

تمّ نحتها بإبداع فريد..

حتى أصبح من عجائب الدنيا

وروائع الآثار!

تخلصتُ من زملاء الرحلة ببعض الأعذار

ووجدتني أقف وحدي أمام (أبو الهول)

حتى حل المساء

وبدأ الحراس يدعون الزوار لمغادرة المكان

أما أنا ، فرجوتهم أن يتركوني

لبعض لحظات من التأمل..

ومن حسن الحظ ، أنهم استجابوا لطلبي

وخاصة عندما وجدوني هائما في أفكاري

وكأني عاشق وقع في الحب من أول نظره!

حلّ ظلام الليل بالكامل

ولم يكن في السماء قمر ولانجوم

ومع ذلك ، كنت أرى وجه (أبو الهول)

بكل وضوح..

كان ينظر إلى الأفق في خط مستقيم

وتحتة على البعد..

كانت تتألأ أضواء القاهرة

ثم راحت تنطفئ بالتدريج

ويلفها النوم في عباته!

أما أبو الهول..

فقد ظل منتصب الرأس

ينظر في الأفق البعيد

ومن خلفه الأهرامات الثلاثه

التي احتواها ظلام الليل البهيم!

اقتربت منه حتى لامست أحجاره

وتحسست جسده البارد

ثم ابتعدت عنه مرارا

لكى أستوعبه بنظرتى المحدوده°

دريت حوله عدة مرات

حتى أنهكنى التعب

وأخيراً جلست فى مواجهته

بجانب إحدى يديه°

الممتدين على الرمال..

مرت ساعات الليل من حولى بطيئه°

وكان صوت الريح والخفافيش

يملأنى بالرهب

لكننى كنت أحسّ بشيء مبهم..

وكأنى مقدم على حدث غريب!

ورحت أقول لنفسى:

لعلنى فى تلك الليله°

أقف على بعض أسرارهِ

التي لم يكتشفها حتى الآن

علماء الآثار:

المصريون، والأجانب!

لقد فحصوه مئات المرات

وقاسوا طوله وعرضه وارتفاعه،

وحسبوا وزنه وكتلته..

ثم راحوا يضعون "فروضاً" حوله

قالوا : إنه بنى لحراسة الأهرامات

وقالوا : إنه كان معبودا لأحد المزارعنة

وقالوا : إنه يمثل أحد بناءة الأهرام

وقالوا : إن تحته سردابا سريرا

يصله بالمهرم الأكبر..

وقال بعضهم : إنه يحتوى على كنز لم يكتشف بعد!

أما أنا .. فقد رحت أواجهه بنفسى

وأدور من حوله ،

وأقف أمامه

بعيدا عن كل تلك الأبحاث والفروض!

كان الليل قد مضى أكثره

وهدأت بالكامل كل الأصوات

وسكنت الريح ، وانطفأت كل الأضواء

وفى لحظة غير متوقعة

وجدت (أبو الهول)

يحرك وجهه الباسم نحوى

ويبدأ فى الحديث:

أبو الهول يتكلم:

- أيها المصرى الصغير!

لقد لمست حبك لى ،

وتضحيتك فى سبيلى..

تركت أصدقاء رحلتك يذهبون

وقضيت الليل كله إلى جوارى

تحاول أن تتعرف على..

بدون تعالٍ أو كبرياء!

كل العلماء الذين فحصونى

لم يفعلوا مثلاً فعلت..

فقد كانوا يفتشون وينقبون

وقد خلت من صدورهم

لمسة التعاطف معى..

أما أنت فأنتك تواجهنى

وتحاول أن تحدثنى

لذلك فأبنى أرحب بك

وأجيبك عن كل ما تريد..

فاجأتنى المعجزة تماماً

فلم أستطع الكلام!

وتسمرت خطاى فى الرمل ،

فلم أقدر على الوقوف!

كنت مأخوذاً بين الدهشة والذهول

وجال فى خاطرى للحظة

أن أنطلق هارباً من أمامه..

لكن ابتسامته الحانية

أعادت إلى بعض الهدوء!

يا لحظى النادر!

أبو الهول يكلمنى

وصوته غاية فى الموضوع!

أبو الهول الذى مرت عليه آلاف السنين

والجميع يحاولون استنطاقه

وإخراجه من صمته المريب

ينطق أمامى ،

ويختصنى بهذا الحديث ؟!

عاد أبو الهول يقول :

- أنا أدرك مدى دهشتك

وأقدر اضطرابك ،

وربما ذهولك أمام هذا الحدث المفريد!

فأنا لا أفعل ذلك مع أى أحد

لكننى أرى أنك تستحق محادثتى

فحاول أن تتماسك

حتى لا يضيع وقتى ، وقتك!

وجدتني أتمتم قائلا:

- كيف أتسبب فى إضاعة وقتك ،

أيها التمثال المهيّب ؟!

اعذرني فقط لهوّل المفاجأة

واقبل تحياتي ، وحبى ،

وكل مشاعر التقدير والإجلال!

قال:

- أنا أقدر تماماً حالتك البشرية

وهي أمر طبيعي

فلم يحدث أن تكلم تمثال من الحجر

أمام إنسانٍ من لحم ودم!

قلت له:

- لكنك تبدو لي

بحسن صنعك

وروعة بنيانك

كأنك كائن حيّ..

لا يفترق أبداً

عن سائر الأحياء!

ابتسم ، فصار وجهه أكثر بهاء

ثم قال:

- هل لديك سؤال

تحب أن تطرحه عليّ؟

قلت:

- من الذي بناك في هذا المكان؟

ولماذا؟

قال:

- هذا سؤالان ،

وليس سؤالاً واحداً!!

أما عن الأول..

فقد بذاني أجدادك المقدماء

وأما الثاني ، وهو الأهم

فقد وضعوني على تلك الربوة العالية

بجوار الأهرامات ،

لكي أشرف على مدينتكم..

وأكون رمزا لعظمتها وخلودها!

سألته:

- لكن ما قصة هذا الوجه البشري ،

وباقى الجسد الذي يشبه الأسد ؟!

قال:

- الأسد هو ملك الحيوانات

وهو حيوان مهيب ، وعلى خُلُقٍ..

فهو لا يهاجم إلا إذا كان جائعا ،

كما أنه من أكثر الحيوانات

رعايةً لأسرته ،

وحنواً على أبنائه!

قلت:

- فلم تم بناؤك من صخرة واحدة ؟

قال:

- لتكون دلالة على روعة النحات المصرى ،

وتظل من علامات إعجازه الفنى ،

فى التعامل مع الحجر..

بينما هناك شعوب أخرى قديمة

استخدمت الحجر للقتل والتدمير !!

قلت:

- فلماذا تنظر فى خط مستقيم

إلى الأفق البعيد ؟

قال:

- هذا سؤال جيد..

إننى أريد أن أقول لكل المصريين

عليكم أن تتطلعوا دائما للأبعد ،

أى للمستقبل..

وألا تنكفؤوا على مواضع أقدامكم

حتى تنطلقوا للأمام..

قلت:

- لقد عايشتَ عصورا متعددة ،

مررت على مصر..

فما رأيك فيها ؟

قال :

- لنا يهم مرور العصور ..

المهم كيف واجه المصريون تلك العصور ؟

لقد تعرضوا طويلاً للاحتلال الأجنبي ،

وأحياناً لظلم حكامهم ،

لكنهم كانوا يصبرون ،

ويتصرفون بحكمة

وهذا الذي جعلهم يستمرون حتى اليوم!

قلت :

- هل يعنى ذلك أنك راضٍ عن أحوالهم ؟

قال بسرعة :

- كلا بالطبع ..

فإن الخضوع للأجنبي وللظالم

قرونا طويلة

لم تكن أمرا جيدا ، ولما مقبولا ..

لكننى أقدر دائما

الأسباب التى اضطرتهم لذلك !

قلت :

- تقصد موقع مصر

الذى كان دائما محط أطماع الغزاه ؟

قال:

- الموقع من ذاحيهُ ،

وعدم الأخذ بوسائل المقاومة ،

من ذاحية أخرى..

لكن ينبغي أن تعلم

أن الظروف قد تكون أحيانا

أقوى من قدرة الشعوب!

قلت:

- فلماذا إذن كانت تطول فترات الاحتلال ؟

قال:

- أنا متأكد أنك لا تعرف عددها بالضبط ؟

أطرقت حياء ، وقلت:

- فى الواقع لا أعرفها..

قال:

- ظل الهكسوس (150) سنة ، والفرس (184) والإغريق (302) والرومان (760) والعثمانيون (291) والفرنسيون (3 سنوات) والمانجليز (72) سنة !!

قلت:

- ولماذا لم تهب المقاومةُ

لإقلاق هذا الاحتلال ؟

قال:

- كان العمل فى الزراعة هو السبب

فقد فرق المصريين فى الريف..

لكن عندما نشأت المدن ،

وكثرت فيها الصناعة والتجارة

بدأ الناس يتجمعون ،

ويتظاهرون ،

وأحياناً يقاتلون!

قلت:

- لكن يقال إن تدين الشعب المصرى

كان سببا فى قبوله الأمر الواقع ؟

قال:

- تدين الشعب المصرى

هو أحد أهم إنجازاته الحضارية

فقد توصل بنفسه

إلى فكرة البعث ، وخلود النفس

وفى أثناء عبادته لآلهة متعددة ،

عرف التوحيد!

والأهم من ذلك

أنه توصل إلى نظام أخلاقى متكامل

سرى فى كل جوانب حياته اليومية..

قلت:

- كيف ترى استقباله الأديان السماوية ؟

قال:

- فرعون لم يسمح بانتشار اليهودية فى مصر

أما المسيحية فقد احتضنها الشعب ،

وضحى من أجل استقرارها

وأخيرا جاء الإسلام

فاهتنقتة الغالبية

وظل الماثنان يتعايشان معا

حتى اليوم!

قلت:

- لكن الشعب ما زال يؤمن

بخرافات كثيرة ؟

قال:

- لا يوجد شعب فى العالم

يعيش بدون خرافات شعبية

وكما يوجد عندكم المزار ،

وحكايات النداهة،

فإن أوروبا ما زالت تؤمن بالبابا نويل..

والصين تقيم مهرجانات

للتنين!

قلت:

- لماذا لم يظهر فى الشعب المصرى

مفكرون وفلاسفة

مثلما ظهر لدى الإغريق

قال :

- لقد كان الكهنة هم السبب

فقد جعلوا (المعرفة) سرية

وقصروها على أنفسهم داخل المعابد

لكن الشعب المصرى

أودع حكمته الرائعة

فى الأمثال الشعبية

إننى أعجب بها كثيرا..

قلت :

- فما الذى منع مصر من التقدم بنفس المعدل

الذى انطلقت به شعوب أخرى ؟

قال :

- التقدم له شروط محددة

إذا وجدت حدث التقدم

كذلك فإنه يحتاج دائما

إلى قائد ،

يحب الشعب ،

ويتجمع حوله .

قلت :

- هل ترى مصر تسير فى خط صاعد ، أم هابط ؟

قال :

- الخط يصعد ويهبط..

كما أن الإنسان يتعرض للمرض والصحة

والغنى والفقر ،

والحياة والموت!

قلت:

- لكن ألا ترى أن مصر

تستحق الآن ما هو أفضل ؟

قال:

- مصر دائما تستحق الأفضل ،

لكن الرغبة وحدها لا تكفى..

فلا بد من الإرادة ،

والتصميم ،

والأخذ بالأسباب!

قلت:

- هل الشعب المصرى

قادر على الأعمال العظيمة ؟

قال:

- كان فى الماضى يفعل ذلك..

وأنا نفسى من بعض هذه الأعمال!

قلت:

- لكننا فى الوقت الحاضر

نعانى من مشكلات كثيره ؟!

قال :

- وكذلك كان آباؤك وأجدادك

لقد خاضوا الحروب

وانتصروا أحيانا وانهزموا.

كما واجهوا الأوبئة

والمجاعات

والكثير من أنواع الفساد..

لكنهم كانوا يتغلبون عليها

ثم يتابعون المسير!

قلت:

- كيف ؟

قال :

- كانوا ينظمون أنفسهم ،

ويحترمون الوقت ،

ويعملون بجديه

وعموما..

كانوا يحسنون التخطيط والتنفيذ ،

وهما أساس أى نجاح فى الحياه!

قلت:

- هل تسمح لي بسؤال شخصي ؟

ابتسم ، وكأنه عرف ما في نفسي ،

لكنه قال :

- أنا أسمح لك بأي سؤال ..

قلت :

- أأنا يضايقتك

أنهم لم يقيموا إلى جوارك

تمثالاً لامرأة ،

تكون رفيقة لك .. على مدى الزمان ؟!

ضحك لأول مرة بصوت عال ،

ترددت أصداؤه في أرجاء المكان ..

ثم قال :

- أنت مصرى خفيف المظل ،

ومع ذلك ،

أصارك بأن مثل هذا التمثال

كان سيسعدني كثيرا!

قلت له :

- ما رأيك في المرأة المصرية ؟

قال :

- هي أم الرجل ،

وأخته ،

وزوجته ،

وابنته ..

وبدونها لم تكن حياته تستقيم!

قلت:

- هل شاهدت عصور ازدهارها ؟

قال:

- أجل ، وكذلك عصور إهمالها!

ثم أضاف:

- لكن أجدادك كانوا يحترمون المرأة كثيرا

ربما أكثر منكم في الوقت الحاضر!

وكانوا يدركون جيدا

أنها عماد البيت

فالبيت الذي يخلو من المرأة

لا يكون له أساس!

قلت:

- هل تشعر مثلنا بمشاعر إنسانية ؟

قال:

- هذا سؤال عجيب ..

أنا واحد منكم ،

وشاهد عليكم ،

وكل ما يمر بكم أشعر به

أتألم لمصابئكم

وتسعدنى أفر احكم!

قلت:

- ليت الناس فى بلادى يعلمون ذلك..

إذن لغطوك بالورود!

قال:

- إن وجودى على تلك الهضبه

معرضا للشمس والمطر والرياح

يتطلب أن يكون جسدى بلا غطاء

فأنا جزء منكم..

وفى نفس الوقت .. جزء من الطبيعه!

قلت له:

- هل تعلم أننى أتمنى أن أستم

فى الحديث معك إلى ما لا نهاية؟

قال مبتسما!

- لكن الضجر اقترب طلوعه

وأنت قد سهرت طوال الليل

ومن حقدك أن تعود إلى دارك لتستريح

وبكذلك..

تتركنى لوحدتى الأثيره!

قلت مستدركا:

- لكن هل تسمح لى بنشر هذه المقابلة

قال بهدوء:

- لا بأس ،

بشرط ألا تحرّف شيئاً منها!

ثم عاد أبو الهول لصمته المعهود..

وغادرت المكان ،

وأنا غير مصدّق ما حدث

فهل يصدقني الناس فيما أحكيه لهم ؟!

وكيف يستقبلونه :

بالرفض أم بالإنكار ؟!

أخيراً..

انتشر في المكان ضوء الصباح

وبالقرب من أول محطة بنزين

في شارع الهرم..

كانت هناك عربة فول ،

تجمعّ حولها بعض العمال والموظفين

وحين اقتربت منهم ،

سألني أحدهم باستغراب:

- هل قضيت الليل في الهرم ؟!

أومأت بالإيجاب

وتطوع آخر بالمتفسير:

- لعلّ من موظفي الآثار!

كنت مجهدا ، وجائعا ،

فلم أوصل الحديث

وأقبلت ألتهم الفضول الساخن بالخبز الطرىّ

وأنا أتفحص وجوه من حولي ، متسائلا:

- هل هؤلاء حقا

هم أحفاد (أبو الهول) ؟!

ويهل يدركون

أنه ينظر إليهم من أعلى الهضبة ،

ويتابع بنظراته ما يفعلون ؟!